**المحاضرة الثالثة: المقاربة السيميائية**

كان من نتائج التطور الذي عرفه الدرس اللساني الحديث، ظهور العديد من المقاربات النقدية، أهمها والبنيوية والسيميائية، وكما اهتمت البنيوية بتقديم قراءات منغلقة للنصوص والخطابات الأدبية، بهدف التأصيل لنماذج بنائية محددة، عمدت السيميائية إلى تقديم وسائل وطرائق منفتحة للقراءة، متجاوزة بهذه الوسائل والطرق جدار اللغة، ومتجهة نحو تأسيس نظرية في علم الأدب، لتنطلق من ثم إلى الاهتمام بأنواع الخطاب الأخرى كالخطاب الديني، والخطاب الفلسفي، باعتبارها أنظمة فكرية مشحونة بحمولة من المعاني التي يجب القبض عليها.

**مفهوم** **السيميائية**: يمكن اعتبار السيميائية علم يدرس «مختلف العلامات والإشارات أو ما ينوب عن شيء آخر كجزء من منظومة ما؛ أي كيف يصنع المعنى؟ وكيف يمثل الواقع؟ سواء أبالكلمات أم بالأصوات؟ أم بلغة الجسد؟ أم الإشارات المرئية...»، ومصطلح السيمياء يقابله مصطلحين السيميولوجيا (Semiology) والسيميوطيقا (Semiotics)، غير أن الفرق بينهما« يرتبط بوظائف الدلالات، فيرى دي سوسير، وهو صاحب الاتجاه الأول، ومن معه من أتباع المدرسة الأوربية أن الوظيفة الاجتماعية هي جوهر الدلالات التي تراهن السيميولوجيا عليها، في حين يرى الأمريكي تشارلز سندرس بورس الذي كتب في فترة دي سوسير الزمنية نفسها، أن وظيفة الدلالات المنطقية هي النقطة التي تسعى السميوطيقا لرصدها».

فإذا كان دي سوسير قد اهتم بالوظيفة التواصلية والإبلاغية للعلامة، فإن بيرس فقد ذهب إلى البحث في الجانب الفلسفي والمنطقي للعلامة، ومن ثم الوقوف على مختلف الدلالات التي تؤديها، هذا ما ذهب إلى تأكيده جيرار دولودال (Gerard deledalle) في كتابه السيميائيات، أو نظرية العلامات، حيث يقول بأن الأبحاث والدراسات المعاصرة حول العلامة: «تصدر من منبعين اثنين هما: شارل سندر بيرس(1839- 1914)، وفارديناند دي سوسير(1857- 1913) الذي هو في الأصل التيار السميولوجي».

**جهود دي سوسير السيميائية:** لقد بشر دي سوسير بميلاد علم السيمياء، وحدد موضوعه في كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة"، «إذا كان بالإمكان تحديد اللغة كنظام من العلامات (الدلائل) يعبر عما للأنسان من أفكار يمكن مقارنتها بأنظمة أخرى كالنظام الألف بائي والنظام الإشاري العسكري، فمن الممكن أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون جزءا من علم النفس العام ونقترح تسميته بالسيميولوجيا (Semiologie)؛ أي علم العلامات أو الدلائل، وهي كلمة مشتقة من اليونانية (Semio)، بمعنى دليل أو علامة ،و(logie)، بمعنى علم فتصبح علم العلامة، ولعله سيمكننا من أن نعرف مما تتكون العلامة وهي القوانين التي تسيرها».

ومعنى هذا أن دي سوسير حاول تحديد الإطار الذي يمكن أن تندرج ضمنه السيميولوجيا، «وبما أن هذا العلم لا يوجد بعد فإن فقد يتعذر علينا أن نقول كيف سيكون، بيد أن لهذا العلم الحق في الوجود ومكانه قد حدد مسبقا»، ويضيف قائلا: «علم مستقبلي سيتم تأسيسه ليكون حاضنا لكل الأنساق الدالة الأخرى، وسيكون من الشمولية والاتساع لدرجة أن اللسانيات لن تشكل داخله سوى جزءا بسيطا أو فرعا من فروعه الكثيرة».

**التوزيع الثنائي للعلامة عند دو سوسير:** اتخذ سوسير من اللسانيات منطلقا له في حديثه عن السيميولوجيا، فقد «وزع العلامة اللغوية على ما رأينا، على الدال (= الصورة الصوتية / السمعية)، والمدلول (= المفهموم) اللذين يرتبطان بعلاقة اعتباطية وقد ركز على علاقة العلامة اللغوية مع العلامات الأخرى داخل النظام، وعلى العلاقة بين العلامة وما يحيط بها من داخل مرحلة حسية دالة».وباقتران والمدلول تفهم العلامة اللسانية، ويشبه دي سوسير العلامة بالورقة التي لا يمكن فصل وجهيها عن بعضهما البعض، فتمزق الأول يؤدي بالضرورة إلى تمزق الثاني، ويقدم سوسير هذين العنصرين على «أنهما يرتبطان ببعضهما ارتباطا كاملا لا يوجد أي منهما قبل الآخر في سياق اللغة الكلامية، ولا تكون الإشارة صوتا من دون فحوى أو مضمون، ولا فحوى من دون صوت».

**اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول:** من تصورات سوسير اللسانية العلامة اللغوية التي تتشكل من وجود «العلامة الرابطة بين الدال والمدلول، وهذه العلاقة ذات علاقة اعتباطية، والاعتباطية في مفهومها الأدبي هي غياب منطق عقلي يبرر الإحالة بين الدال والمدلول، فلا وجود لعناصر داخل الدال تجعلنا ننتقل آليا إلى المدلول، فالرابط بين هذين الكيانين يخضع للتواضع والمعرفة والتعاقد».ومنه نفهم أن العلاقة بين الدال والدليل لا تخضع للتبرير المنطقي، و إنما هي علاقة قائمة على العرف والتعاقد، وبهذا فإن مفهوم الاعتباطية عند سوسير يقصد منه غياب والتعليل المنطقي الذي يبرر الإحالة من الدال إلى المدلول.

فالعلامة إذن «لا تخضع إلى إرادة الفرد بمعزل عن المؤسسة الاجتماعية، وبالرغم من أن دوره لا يستهان به في إنتاج هذه المعلومات، وإضفاء المعقولية إليها ، ومن جهة القدرة على فهمها عن طريق النشاط الاستدلالي»، فالعلامة لا توجد إلا من خلال المتلقي الذي يقيم العلاقة بين الدال والمدلول، كما ترتبط أيضا بالجماعة الإنسانية التي تتعارف على استخدامها.

**جهود شارل سندرس بيرس:** يعتبر الكثير من الدارسين أن تاريخ السيميولوجيا بوصفه علم قائم بذاته، يبدأ مع بيرس الذي درس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها، وتقوم سيميوطيقا بيرس على ثلاث مراحل حتى اكتملت رؤيته وتصوره السيميائي:

* المرحلة الكانطية التي ارتبطت فيها نظرية العلامات بالمقولات الكانطية في سياق المنطق الأرسطي الزوجي.
* المرحلة المنطقية التي اقترح بيرس فيها منطق العلاقات وحل المنطق الأرسطي محل المنطق الأرسطي، ومنطق العلاقات هذا سيكون الضامن لتصوره الثلاثي عن المقولات والعلامات.
* المرحلة السيميائية التي سيطور فيها بيرس نظريته الجديدة للعلامات بعلاقة مع نظريته الجديدة بمقولات، وهذه المرحلة الأخيرة هي الأهم.

**مفهوم العلامة (الإشارة) عند بيرس:** ينطلق بيرس في تحديده لمفهوم العلامة من منطلق السيرورة الدلالية التداولية (السيميوز) القائم على مقولة الثلاثية (triodique) على خلاف ما جاء ب هدي سوسير الذي حصر مفهوم العلامة في مقولة الاختلاف أو التعارض الثنائي (دال ومدلول)، فالعلامة أو الممثل (representamen) هو: «شيء يمثل شيئا ما بالنسبة لشخص ما بمظهر ما أو بإمكانية ما»، إضافة إلى ذلك اعتمد بيرس في تقسيمه للعلامة على مبدأ التثليث انطلاقا من العناصر المكونة للعلامة وهي: الممثل والموضوع والمؤول:

**الممثل (representamen):** ويقابل عند سوسير "الدال" وهو الوسيلة التي تستعمل للدلالة، أو حامل الإشارة،أو الشكل الذي تتخذه الإشارة اللغوية، أو غيرها من العلامات، وتعني الإشارة باعتبارها ممثلا شيئا ما إلى الشخص؛ أي تولد في فكرة معادلا لها، أي إشارة متطورة، وقد أطلق بيرس على الإشارة المولدة اسم تأويل الإشارة الأولى، وتنوب الإشارة عن شيء ما، ليس من جميع نواحيه، إنما عن فكرة أطلق عليها أرضية الممثل.

**الموضوع بعضهم يسميه الموجودة (lobjet)**: وهو المشار إليه، أي الشيء الذي تحيل إليه العلامة، ولا يوجد له مقايل عند سوسير.

**الموضوع (linterpretant):** وهو في حقيقته ليس مؤولا، إنما المعنى الذي تحدثه الإشارة، وهو في إشارة ثانية في فكر المؤول فيها معنى الإشارة الأولى، إذا معنى الإشارة لا يحضر في ذاته، إنما يبرز من خلال التأويل في ذهن المؤول ، ويقابله عند سوسير "المدلول" مجردا من أبعاده، غير أن المؤول يملك صفة لا توجد في المدلول.

انطلاقا من هذه المفاهيم فإن العلامة لا تستقيم بالمعنى الكامل إلا بتعاضد ثلاثة فروع، على أن يكون كل فرع عضو من الأركان الثلاثة السابقة.

**ــ العلامة النوعية:** أي هي نوعية تشكل العلامة، ولا يمكن أن تتصرف كعلامة حتى تتجسد ، ولكن التجسيد لا يرتبط إطلاقا بطبيعتها من حيث كونها علامة.

**ــ العلامة المتفردة:** هي الشيء الموجود والواقعة الفعلية التي تشكل العلامة، ولا يمكنها أن تكون كذلك إلا عبر نوعيتها، ولهذا فهي تتضمن علامات عرفية متعددة.

**ــ العلامة العرفية:** هي عرف يشكل علامة، وكل علامة متواضع عليها فهي علامة وعرفية (وليس العكس)، وليست العلامة العرفية موضوعا واحدا، بل نمطا قد تواضع الناس على اعتباره دالا.

وفي الأخير نجد أن بيرس ينظر إلى العلامة نظرة ثلاثية الأبعاد تشكل واحدة منها في الذهن علامة، بل لابد من تربط الأبعاد الثلاثة في الذهن حتى تكونها وهي:

* **البعد التركيبي:** وهو الذي ينظر إلى العلامة في علاقتها بغيرها من العلامات.
* **البعد الوجودي أو الدلالي:** وهو الذي ينظر إلى العلامة في علاقتها بالشيءالذي تدل عليه؛ أي في ربطها بالواقع والموضوع الذي تعبر عنه العلامة.
* **البعد التداولي:** وهو الذي ينظر إلى العلامة في علاقتها بمؤولها، أو في العلاقة التي تقيمها مع مؤولها، أو المتلقي الذي يسعى إلى فهمها وإبراز مضامنيها.

**مربع غريماس السيميائي:** دعا غريماس (A.j.Greimas) الباحث السيميائي على عدم الاكتفاء بعملية المزاوجة بين المفاهيم، والقيام بإيجاد التعارضات الاستبدالية فقط بل يجب عليه كذلك أن يقدم نموذجا يسعى إلى الكشف عن منظومة المعنى لأن «كل معنى يقوم لا على تعارضات ثنائية فقط وإنما على عارضات رباعية كما فيك (أسود:أبيض) و(لا أسود:لا أبيض) ... وهو ما يعرف اليو باسم المربع السيميائي الذي يمكن أن يطبق على أي فعل، إنساني معرفي أو خيالي».

تقوم علاقات المربع السيميائي على التضادية (التضاد وشبه التضاد)، والتناقض، والتضمن، وتحكم هذه العلاقات «قيم موقعية وتعارضات كيفية وحرمانية وعدمية، فالتعارضات الكيفية تعتري التضادية، والتعارضات الحرمانية تصيب التناقض»، وفي الأخير نخلص إلى أن هذه الاتجاهات السيميائية شكلت روافد أصيلة لبناء قراءات سيميائية ليس للأدب فحسب بل لقراءة أنظمة علاماتية وإشارية أخرى، فبالإضافة إلى قراءة الأدب: شعرا ورواية ومسرحا، والفن رسما وموسيقا وسينما، فقد دخلت السيميائية كل دوائر الخطاب وأصلت لقراءة الخطابات الفلسفية والدينية والفكرية، وقد امتازت الدراسات السيميائية بحرصها على فهم العلاقة الأدبية في مستوى العلتقة الجدلية بين النص الأدبي و المجالات الثقافية الأيديولوجية، وبنيتها الاقتصادية والاجتماعية، وفي مستوى النص الأدبي نفسه.

**ثانيا: المقاربة السيميائية في النقد عند العرب:** عرف مصطلح السيمسائية إشكاليات عدة في النقد العربي الحديث، لمل شهده من تذبذب وغموض، وتعدد في اللفظ والمضمون، فقد جاءت بتسميات كثيرة للسيميائية منها (السيميوطيقا والسيميوتيقا والسيمياء والسيميائية والعلامة والعلامية وعلم المعنى والدلائلية، والإشارتية).

وتظهر إشكالية المصطلح السيميائي في النقد العربي، «لا على أسس جوهرية بحيث يتباين بحسب اختلاف مجال كل منهما، فالنقد العربي الحديث لم يقدم الشيء الكثير على صعيد التحليلات السيميائية فعليا، وبقيت معرفته فيه بسيطة تعتمد على النقل المباشر تنظيرا ليس إلا، وأما الاختلاف في المصطلح فقد نجم عن اختلاف في المصدر الذي أخذ منه؛ فإذا نقل عن الفرنسية ظهر مصطلح السيميولوجيا، وأما إن نقل عن الإنجليزية فيشار إليه بالسيميائية، هذا بالإضافة إلى ظهور ترجمات عدة له، مثل "علم العلامات" و"علم الدلالة" و"علم الأدلة"،و"علم العلامة"».

وعلى الرغم من انفتاح الدراسات السيميائية على مختلف المناهج النقدية دون أن تركن في رحاب الاتجاه البنيوي كما كانت عليه في نشأتها، ويتجلى لمن اطلع على الدراسات النقدية العربية التي اعتمدت السيميائية، أنها لم تأخذ منها إلا الشكل لا غير، «إذا كان بالإمكان الحديث عن اتجاهات للسيميائية في النقد الغربي فأن الأمر يبدو شديد المباينة بالنسبة لواقع في النقد العربي، إذ يصعب حتى الحديث عن اتجاه سيميائي عموما، فبالإضافة إلى ندرة الدراسات السيميائية فإن هذه الدراسات التي تبنت المنهجية السيميائية في قراءتها لنصوص الشعر العربي الحديث لم تسع سوى جانب بسيط منها قائم على مفهوم العلامة اللغوية من منطلقات البنيوية، أو الاهتمام بالحقول الدلالية في أحسن الأحوال».

ومن أهم المحاولات التي عرفها الاتجاه السيميائي في النقد العربي نجد دراسة خالدة سعيد التي تناولت قصيدة "النهر والموت" للسياب، و«ويمكن عد قراءة خالدة سعيد لنص السياب "النهر والموت" أول محاولة جديدة للاستفادة من السيميائية في القراءة والتحليل في النقد العربي، وقد نشرت الدراسة - أولا- في مجلة مواقف عام (1978)، ثم أعيد نشرها بعد سنة واحدة في كتابها "حركية الإبداع"». ويمكن إدراج هذه المحاولة ضمن المنطلق ذاته الذي أشارت إليه في كتابها السابق.

ترتكز آراؤها حول الإبداع على أساس ربطه بالحداثة، فالإبداع «من هذا المنظور معرفي ليس من بالمعنى الاستظهاري أو التصنيفي لأنه ليس نقلا أو وصفا لقائم، بل معنى الكشف والبحث»، وتعرض لنا لغة الكشف في قولها: «أما لغة الكشف فهي تجاوز للمثال المتحقق، وابتكار لمثال ما يلبث أن ينقض، وهذا يعني حركية العلاقة بين الإشارة (سواء أو تسمية أو رمزا أو صورة أو أسطورة، وبين الدلالة التي تحملها أ ي حركية الشكل».

وتعد محاولة محمد السرغيني لدراسة "المواكب" لجبران خليل جبران على أساس المنهجية السيميائية أكثر جهدا من خلال شرح طريقته المنهجية في مهاد نظري، قدم فيه الكثير من الآراء والإشكاليات التي تتعلق بالاتجاه السيميائي، بداية من ميلادها كعلم وصولا إلى صيغتها التي انتهت لها، وصارت منهجا نقديا، وكان لهذا العرض منفعة كبيرة انعكست على النقد العربي الحديث، على الرغم من الخلط الذي شابه في الأفكار المطروحة، وهذا ما يعكس عدم الدقة البالغة في النقل عن الغرب، فقد أشار إلى أن «سوسير قد جعل الألسنية صلا للسيميائية، وأن بارت يرى خلاف ذلك»، في حين نجد أن سوسير وبارت يرون خلاف ما جاء به السرغيني، فسوسير يشير إلى أن «علم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام».

في نجد أن بارت جاء بقول سوسير السابق ونقضه معتبرا أنه «من غبر الأكيد، قطعا أن تجد في الحياة المجتمعية المعاصرة أنظمة أدلة غير اللغة البشرية»، وعلى الرغم من التفصيل النظري في المقدمة التي عرضها إلا أن الناقد لم يسهب في قراءته التطبيقية، باستثناء جانب ضئيل مما طرحه مولينو(Molino)،وهو ما دعاه بالتحليل السيميولوجي للحدث الرمزي الذي أقامه على ثلاثة مستويات هي: المستوى الحسي ويعني تحليل النص في علاقته بالمبدع وبالمتلقي.

المستوى المحايد ويعني تحليل الشكل الذي أنجز النص فيه.

المستوى الشعري ويعني مجموعة الإسهامات الثقافية والسياسية والمادية التي عملت عملها في النص.

إن هذه الاستفادة وغيرها من معطيات السيميائيات الغربية، ربما تكون ذات أهمية بالنسبة للنص الشعري العربي وعلى الرغم من هذه المحاولات والجهود التي تبدو غير كافية لتقديم هذا الاتجاه في نقدنا العربي، إلا أنها تعكس رؤية نقدية جديدة كثيرا ما حاول النقاد العرب السير على منوالها دون التقيد باتجاهات معينة، وهي محاولات نقدية متفردة تعكس مجرد الجهد الذاتي، مما يبين أن النقاد العرب تلقوا السيميائية بشكل مقتضب وجزئي، وغير مباشر دون متابعة تحولاتها في الغرب.